ليل ومصباح

قصة بقلم وجيه رضوان

كان يسير وحيداً في ليل كلة ثورة . العاصفة ، والبرد ، والسيل . وصراخ الريح في الابعاد المظلمة ، كانت كلها تهتف في سخط .

واحس كأن نفسه وحدها تتلقى السياط ، وكأن وجوده المتعب يعوي من الاعماق مثل ذئب جائع . وشعر انه يستطيع ان ينحني حتى يلامس وجهه ماء السيل فيجمده حيث هو بنظرة حب واحدة تكون اقوى من السماء التي تبصقه وحلا هادراً على الطريق . وانه يستطيع ان يغرز يديه في الطين والوحل فيصنع وردة تتفتح حمراء نقية .. رغم لعنات السماء . وانه يستطيع بذراعيه القويتين ان يطيل السحب فيمزقها ويجعل النجمات تطل وتضيء للعالم ..

وبغتة توقف عن المسير . كان الشارع مظلماً ، وبدا مصباح الكهرباء شاحباً ومتدلياً مثل مشنوق . وشرع يتأمل المصباح .. كان ضوءه خافتاً راعشاً ، وبدا كأنه يقاوم الليل بصعوبة .. ويموت ، يموت وحيداً وضعيفاً وسط ثورة سوداء .. هي الليل ..

فرفع يده مشيراً وهتف :

— يالك من نبي بائس ..

ووقف يبحث في كل مكان ، وعبثاً وجد حجراً . كان يريد ان يحطم المصباح ، ان يشفق عليه ، على روحه الواهنة التي تتساقط مع قطرات المطر . ثم هز رأسه :

— ولكنه يضيء على اية حال ..

وتابع مسيره . ومن بعيد لاحت له اشباح سوداء تتحرك عند جدار . وسمع اصواتاً متعددة مبهمة . وانيناً مكتوماً يحاول ان يجد له متنفساً وسط هذه الاصوات . كانت ثمة امرأة مستلقية على الرصيف فاقدة الرشد . وبدا رجل عجوز يحاول عبثاً جعلها تعود الى رشدها . وبغتة علت قهقهات . وبدا شابان ينظران الى المرأة ويتغامزان . ثم قال احدهما يخاطب العجوز :

— ولم كل هذا الشعور النبيل نحو داعرة يا .. سيد ؟

وقال الآخر :

— دعها .. فلعل الليل والالم يمضيان بروحها بعيداً عن هذا العالم ..

ثم ابتعدا ومن بعيد كان احدهما يخاطب الآخر :

— لقد ضاجعتها مرة بخمس ليرات . ولم تكن وسخة ودميمة مثل اليوم ..

ولم يأبه لها العجوز فدمدم هازاً المرأة من كتفيها :

— .. اما ان يحكم بموت انسان هكذا اعتباطاً ، فان الضمير يصيح عند ذاك جلاداً وليس نبياً .

وبعد وقت بدأت المرأة تعود الى رشدها . وهنا تنحنح العجوز ثم اصلح من وضعها على الارض واسندها الى الحائط ثم مضى .. في الليل . اما هو فقد جلس قربها . ثم انحنى يتأملها . كانت ثمة شامة سوداء مصطنعة على خدها . وبدا شحوب وجهها بارزاً رغم الاصباغ الرخيصة . وحاجباها كانا مزججين بطريقة فاضحة . وكانت ثيابها رخيصة ، وبدا جيداً انها من بنات الليل .

ونظرت بدورها اليه وراحت تتأمله من خلال الألم ، ثم اسندت رأسها الى الحائط ، ثم عادت تنظر اليه . كان هو صامتاً يعبث بشريط حذائه ، ومن حين لآخر كان يلقي عليها نظرة ثم لا يلبث ان يبتسم .. وينفجر من عينيه بريق وادع ، ثم جمع رأسه بين كفيه وشرع يتأملها باسى وحنان .. حنان غريب شعر به يغني في صدره وفي قلبه وفي روحه . انه لم يحب احداً مثلما يكاد يحب هذه المرأة المجهولة . ولم يكن في ماضيه ، كل ماضيه ، امرأة واحدة احبها بقلب نبي . انه الآن في هذه الساعة ، في هذه اللحظة التي يحس فيها انه مقدم على تجربة جديدة مثيرة ، يضم في كيانه كل معطيات الانسانية ، ويشعر انه انسان .. انسان جديد يبحث عن مسئولية ، عن عمل كبير .. مجيد يبرر فيه لحظة من حياته .. لحظة واحدة فقط . انه مدعو لأن يكون انساناً بالفعل .

وعاد يغمر المرأة بنظرات لطيفة دافئة .. ثم فاجأه صوتها ضعيفاً واهناً :

— ولكن من انت ؟

— انا ؟ وهز كتفيه ثم ابتسم .. انا ؟ لقد كدت احطم المصباح ! . ونظرت المرأة اليه بدهشة .. ولم تفهم .. ثم قالت وهي ترتجف :

— رأسي يدور .. يدور ... اني اصطرع في دوامة .. واكاد ابصق كل اعماقي .

ولم يجب الشاب . كان رأسه منكساً الى الارض ، ويداه ترتجفان بعصبية . وكان من حين لآخر يوزع نظره بين المرأة الضعيفة الناحلة ، وبين الليل والمطر . وكان قلقاً حائراً . ثم غمغم :

— .. ولقد كان المصباح يضيء بصعوبة . ويذرف روحه قطرات صغيرة . ولقد كدت احطمه .

وفغرت المرأة فمها وقالت بعصبية :

— عن ماذا تتكلم ؟

— عن المصباح ..

— اي مصباح ؟

— مصباح الطريق .

— ولماذا كدت تحطمه ؟

— لست ادري .. لقد ذكرني بالمسيح عندما كان مصلوباً !

— هكذا اذن انت لا تحب المسيح ..

وهتف مشيراً بيديه :

— كلا .. كلا .. ولكني لم اشأ ان اراه مصلوباً وحوله جلادوه ..

— وما دخل المصباح ؟

— لقد كان واهناً .. تتلاعب به الريح وفوقه يهمي المطر .

— ولقد كدت تحطمه ؟

— نعم ..

— كدت تحطم المسيح

فقال يدافع عن نفسه :

— اوه .. ابداً .. كانت لحظة سوداء . ولم اعرف ان المصباح كان يضيء .. وكذلك المسيح . انه انتصار رائع ان يضيء مصباح صغير رغم الليل .. والعاصفة .. والثورة .

ونهض فجأة واخذ المرأة من يديها . وانهضها عن الارض . واستسلمت المرأة له دون مقاومة . والقت برأسها على صدره ومال جسدها عليه .. ثم

سار بها متباطئاً .. في الليل

***

وفي غرفته اضاء الكهرباء . ثم دس بين شفتيه سيجارة وقدم لها اخرى فرفضت وراحت من خلال انينها تستعرض الغرفة بنظرات زائفة ..

– لم يضمني يوماً بيت جميل ، فانا وحيدة ومضطهدة في العالم .

وبدا كأنه لم يسمعها وشرع يلتفت يمنة وشمالا كمن يبحث عن شيء . فتابعت المرأة كلامها :

– انا اجهل دائماً اين ابيت ليالي . انه لا مكان لي في العالم . وبيتي هو عشرات الاجساد التي اضاجعها. وظل الشاب صامتاً. ثم جثا قربها وشرع يغسل وجهها بالماء . ثم قدم لها كأس نبيذ ..

– مراراً من خلال احداث طيبة عبثاً حاول الله ان يجعلني اهتدي اليه . وكنت ارفض غريزة ملعونة في الانسان تجعله يثور ويتمرد ويحاول ان يصنع شيئاً ما بيديه .. وبملء حريته . ويبدو اني قد اخفقت . وصمتت . واخذت تتأمله وهو يجفف عن وجهها الماء . كان هزيلا . وفي عينيه الصغيرتين بريق ثائر . وكانت يداه تتحركان بعصبية . وحين مر بأنامله على جبينها كيما يرد شعرها المتهدل احست بما يشبه الحرير منسدلا على عينيها .

وهتفت حائرة :

– ولكن من انت ؟ ولماذا جئت بي ؟ قبل ان القاك كنت لا اثق برحمة البشر .

– اني احمل شيئاً من النبل في قلبي . اني احمل نفسي . انا انسان .. وسكت وعاد يجفف وجهها وثيابها .

– نعم .. ان الله رحيم . انه ينقذنا دائماً في اللحظة الاخيرة ..

ورفع رأسه فجأة وتوقف عن الحركة .. وقال وهو ينظر في عينيها :

– حين مددت لك يدي لم اكن افكر بالله .. كل ما في الامر انني شعرت فجأة بقيمتي .. وبوجودك . ان الشعور بوجود الآخرين نبيل وحي . وهو يكرس وجودي انا .

– هكذا اذن بغفلة من الله نسرق كل قيمته ..

– كلا .. ولكن هل لله دخل في هذا ؟ ولماذا اقرن اسم الله دائماً بكل عمل كريم ؟ الانسان وحده على الارض .. وهو وحده خالق القيم ..

وهزت المرأة كتفيها :

– انني لا افهم ماذا تقول . كل ما يهمني اني وجدت الليلة بيتاً يضمني دون عار .

كان الماء قد بلل ثيابها . فاحست بالصقيع ينفذ حاداً الى جسدها . فتكومت في زاوية الغرفة ترتجف ثم شرعت تنضو عنها ثيابها المبللة . وبدا لحمها الاسمر اللدن وكذلك نهداها . ثم زحفت نحوه وكاد وجهها يلمس رأسه واحس بانفاسها الدافئة تتسرب كينبوع في ثنايا شعره . ثم راحت تشاطره التأمل من النافذة . والتفت يتأملها ودفن عينيه في صدرها العاري .. وفي نهديها . وغمر جسدها كله بنظرات جديدة وغريبة . واحست المرأة بالجوع يتمرد في عينيه وفي حركاته . فعادت تبتعد عن النافذة ثم تزحف وتتكوم في آخر الغرفة . واسدل الشاب ستار النافذة وشرع يقترب منها بهدوء . وبدا الذعر على وجه المرأة وصرخت وهي تلتصق بالجدار :

– كلا .. لا تجعل النهار يطلع واثم جديد يزيد في عذاب الكون ..

وابتسم .. ثم توقف .. ثم عاد يقترب من جديد . وفي عينيه اكثر من ابتسامة . وعادت المرأة تصرخ :

– كلا لن امكنك . ان الضمير لا يموت في الناس ولو صاروا جميعاً جلادين . ان ملايين الليالي السود قد مرت على الشمس ومع ذلك ظلت بيضاء ، وظلت مشرقة تتألق في سمائها. انه من اجل قدسية اللحظة التي انقذتني فيها احافظ على صنيعك .. انه من اجلك انت ارفض الاثم ، لا من اجلي .

وتوقفت عن الكلام واحست به يلتصق بها .. وذراعاه تحوطانها بدعة .. وشعرت بنعومتهما وبدفئهما. والقى رأسه على صدرها باسماً .. وشرع يقبل عينيها مثل طفل يلتهم ببراءة قطعة حلوى . ثم نهض واطفأ المصباح . واقترب من النافذة ، ينظر الى الليل . وقربه زجاجة النبيذ فارغة . والسيجارة تحتضر بين اصابعه . ونظر اليها فوجدها تتمدد مرتجفة على الارض الباردة . فاغمض عينيه .. وجلس وحيداً بانتظار الصباح .

بيروت

وجيه رضوان

صدر اخيراً

عن دار الآداب

قناديل اشبيلية

مجموعة قصص رائعة للقصاص السوري المعروف

الدكتور عبد السلام العجيلي

قصص انسانية عميقة ذات جو سحري عجيب

ثمن النسخة ١٥٠ قرشاً لبنانياً او ما يعادلها

تطلب من دار الآداب – بيروت ص . ب ٤١٢٣